ابن خلدون..
فلسفته الاجتماعية

الفصل الثاني

obeikandl.com

الفصل الثاني

تَبْدُو مُقَدِّمَة ابن خَلْدُون مؤلَّفًا فلسفيًّا ناشئًا، حَصْرًا تقريبًا عن تَجْربته في تاريخ إفرِيقيَّة الشمالية على الرغم من علمِه التاريخي الواسِع

كلما انتهى الفيلسوف إلى فتح طريقٍ جديد يَسْلُكه الفكرُ البشريُّ في قرونٍ، وكلَّمَا ماز العالِمُ وبَيَّن انحرافًا جديدًا يُمَكِّن من الاقتراب من نظام للحادثات أو الانتهاء إليه، وُضِعَتْ مسألةٌ مُسْتَهوِية حَوْلَ وصف السُّبُل التي أوصلته إلى هذا الاكتشاف، وهذا العمل فصلٌ متزايد الأهمية في الفلسفة الحديثة، وذلك أن تُدْرَسَ العلومُ المعدودةُ نِتَاجًا يُمْكِنُ الإنسانَ أن يلاحظه بذهنه، وأن تُتَّبَع خُطَى الباحثين والمفكرين، وأن تُوصَف سلسلةُ الأفكار والحوادث الرُّوحية التي أدت إلى وَضْع إحد المُعْضِلات، أو إلى انتحال أحد المناهج.

وَيَكُون هذا البحثُ مُمْتِعًا على الخصوص عندما يكون لَنَا أن نعتقد أن الإيجاد الذي نَبْحَث عن تكوينه يقتضي أقصى حَدٍّ للإبداع، وهذا الإبداعُ يُوجَد مضاعَفًا لدى ابن خلدون، وذلك أنه ما نُظِر إلى الأمر من الناحية الفعلية كان أولَ ما يُرى أنه لم يُوجَدْ شيءٌ مماثلٌ لمحاولته في الآداب الشرقيَّة، وقد كانت فلسفةُ العرب مائلةً إلى الزوال في الزمن الذي ألَّف ابنُ خلدون فيه، وكانت هذه الفلسفةُ قد مَثَّلَتْ دَوْرَها الابتداريَّ بنجاحٍ باهرٍ ما دامت قد جَدَّدت سُنَّة اليونان وبعثت

دراسةَ المنطق والعلومِ الطبيعية، ثم أُمْسِكَتْ وخُنِقَتْ بين نَوْبات التعصب والفوضى التي دَلَّت على آخر سلطان العرب في الأندلس ووَهْنِه في المشرق، أي في هذا الجوِّ من الحرب المقدَّسة أو الاضطهاد القائمِ على شيءٍ من الحَمِيَّة والقليلِ الملاءمة للدِّراسة الفلسفية أو المباحث العلمية.

بَيْدَ أن مذهبَ ابن رُشْدٍ أو ابنِ مَيْمُون العقليَّ قد اتَّجه على الخصوص نحو ما بعد الطبيعة وعلمِ الكلام، والعلوم الطبيعية، وأما المؤلَّفاتُ التي تتناول موضوعاتِ السيادةِ وعلمِ الأخلاق وما يُسَمَّى العلومَ الاجتماعيَّةَ في الوقت الحاضر فقد كانت تَبْحَثُ في هذه المسائل من حيث صِلاتها بعلم الكلام، أو كانت تتألف من تعاليمَ قائمةٍ على الاختبار، ويَقُوم إبداعُ ابن خلدون على محاولته أن يُطبِّقَ على دِراسة المجتمعات مِنْهَاجَ الترصُّدِ والمشاهدِة التي كان قد اتَّخَذَه أحيانًا مع التوفيق أسلافهُ من أعاظم فلاسفة العرب في مؤلفاتهم عن العلوم الطبيعية والطِّبِّ، وذلك إن لم يُطَبِّق المنهاجَ الوضعيَّ، ولا جَرَمَ أننا بعيدون من أن نَجدَ هنا مِنْهَاج النقد الذي سيُولَدُ في أوربا بعد حينٍ، ولا إيضاحَ المباحث الاستقرائيَّة التي سنَجِدُها في أثر الوزير بيكن، ومن الإصابةِ بمكانٍ ما لا حظه مسيو رينه مُونيه من أن الأمثلةَ التي جاء بها مؤلِّفُنا أجدرُ أن تُعَدَّ تفاسيرَ من أن تُعَدَّ براهين، فالأجدرُ أن تَجِدَ لدى ابنِ خلدون شعورًا بموجِبات النقد الصحيح والمِنْهَاجِ الوضعيِّ مَن أن تَجِدَ إدراكًا جليًّا لهذا المِنْهَاجِ، "غير أن هذا الشعور يكفي للدلالة على وجودِ شواغلَ ذهنية لديه حَوْل الوضعيَّة سَبَق بها عصرَه كثيرًا»[(١)].

بَيْدَ أنه لا يُمْكِن أن يُدَلَّ على مُبَشِّرٍ بابن خلدون أصلاً، فيُعَدَّ ابنُ خلدون مُوَاصِلاً له، وذلك سواءٌ أبين معاصريه أم بين أسلافه الأَدْنَيْن أم بين القدماء،

(١) رينه مونيه، أفكار أحد فلاسفة العرب الاجتماعيَّة في القرن الرابع عشر، مجلة علم الاجتماع الأممية، مارس ١٩١٥م.

obeikandi.com

وذلك لأنه لم يَمُتَّ بصلةٍ إلى أيٍّ من مُفَكِّري القرون القديمة يُمْكِن أن يَتَناول كتبَه ويُفَسِّرَها، وذلك كما صَنَع فلاسفة العرب نحو مَنْطقيَّات أرسطو مثلاً، وكان كتابا القرون القديمة الرئيسان اللذان يُمْكِن أن يُوحِيا إلى ابن خلدون مجهولين لديه، وهما: كتابُ السياسة، لأرسطو، الذي لا يزال مفقودًا في ذلك العصر، وكتابُ الجُمهورية لأفلاطونَ، الذي كان أمره هكذا، ومن الثابت أيضًا أن ابن خلدون كان يَجْهَل «تُوسيديدَ» الذي يقارَن به غالبًا.

وهكذا فإن هؤلاء الأسلاف العظماء كانوا غيرَ موجودين إذَن بالنسبة إلى ابن خلدون ولا غَرْوَ، فإن من يُجهل أمره يُعَدُّ غيرَ موجود، ونحن لِما لا يُوجَدُ إلهامٌ صريحٌ تُربَطُ به مقدمةُ ابن خلدون ارتباط نسب، يجبُ علينا أن نبحث ضِمْنَ تكوينها العامِّ، في كون ما نَعْرِفهُ عنها يُفَسِّرُ اتِّجَاه مباحثه ووجهةَ ذهنه الخاصة[1].

ونَعْرِف أن ابن خلدون قام في جامعة تونس (جامع الزيتونة) بدراساتٍ تامة جدًّا، وهو يُسهب بشيء من الزهو فيما نال من نجاحٍ مدرسيٍّ، ولكن أساتذته لم يَتْرُكُوا قطّ أثرًا في تاريخه، ويظهر أن الذي له أعظمُ نفوذٍ فيه هو الفيلسوفُ الآبِليُّ الذي يدعوه " شيخ العلوم العقلية" والذي كانَ عالِمًا منطقيًّا من حيث النتيجة، وتوعى الإشارة، فلم يكن أبرزُ نفوذٍ في شباب ابن خلدون لتوحيديٍّ أو صوفيٍّ، ولا لفقيهٍ، بل لمنطقيٍّ، بل لعقليٍّ، من حيث النتيجة.

وماذا تَعَلَّم في الزيتونة؟ إنه يَرْوِي لنا أن سلسلة دروسه كانت تشتمل على علم الكلام والفقه والعلوم الطبيعيَّة والفلسفة.

---

(١) ومن المحتمل كثيرًا أيضًا أن يكون مؤلفنا، الذي يحق له أن يزهى بأثره، قد أراد أن يزيد في إبداعه، فهو يبذل وسعه في بيانه عدم وجود أي اتصال بينه وبين الكتب الفلسفية السابقة، وهو في هذا يتخذ من الوضع ما يماثل وضع المؤلفين المعاصرين الذين دأبوا في الدلالة إلى الفصل بين الفلسفة وعلم الاجتماع. وترى وضعه واضحًا جدًّا في أمر الكتب التي يمكن القارئ أن يرى فيها مصادر لأثره، فهو يقصي الفلاسفة ويعلن بصراحة أنه لا صلة بين أثره وآثارهم، فقد قال: «أطلعنا الله عليه من غير تعليم أرسطو ولا إفادة موبذان». وأما كتب المؤرخين الذين انتفع بهم ابن خلدون فلم يذكرهم قطُّ، ما لم يكن هذا لمكافحتهم.

ولا نَعْلَمُ هل كان لدى ابن خلدون من الوقت ما ينال فيه ثقافةَ ذلك الزمن المَعْلَميَّة كالتي وصفها في العبارة التالية ناصر خُسْرَوُ الفارسيُّ الذي عاش في القرن الحادي عشرَ، فتُطَابِق البرنامجَ الذي يمكن أن يقال: إنه مَثَّلَ الثقافة المثالية في المجتمعات الإسلامية زمنًا طويلاً؟ قال ناصر خُسْرَوُ:

«عندما استطعتُ أن أميزَ يدي اليسرى من يدي اليمنى شَعَرْتُ برغبةٍ في تحصيل جميع أنواع العلوم، وقد كان من سعادتي أن حَفِظْت القرآنَ في التاسعة من سِنِّي... وقد قضيتُ بعد ذلك خمسَ سنين في التفَرُّغ لفقه اللغة، وللنحوِ والمعاني، وللقريض والعروض، ولعلم الاشتقاق ولرسائل الحساب والتعداد، فلما بلغتُ الرابعةَ عشرة تناولت علمَ الفلك والتنجيم، والعِرَافة بالرمل، وهندسةَ أُقْلِيدِس، والمَجَسْطي وَفْقَ مختلفِ المناهج لأساتذِة مدرسة البصرة والأغارقِة المعاصرين والهنودِ وأغارقةِ القرون القديمة وأهلِ بابل"، ثم درس الفقهَ والحديثَ وتفاسير القرآن فيما بين الرابعةَ عشرة والسابعةَ عشرة من سنيه، ولمَّا بلغ الثانية والثلاثين، وكان مُتَّصِلَ الثَّقافة دائمًا، تَعَلَّم اللغاتِ " التي كُتِبَت بها الكتبُ المنزلة الثلاثة: التوراة والزَّبُورُ والإنجيل"، وقد تَعَلَّم، أيضًا، المنطقَ والطبَّ والرياضيَّاتِ العالية والاقتصاد السياسيَّ، وأخيرًا تعلم العلوم الخفية[1].

ومن الراجح أن يكون ابن خلدون، الذي حافظ في جميع حياته على مَيْلهِ إلى الدرس، قد جال حَوْلَ عددٍ غير قليلٍ من العلوم من شيء من التعمُّق، ويَظْهَرُ في مقابل ذلك، أنه كان لا يعرف شيئًا من اللغات الأجنبية، ومن المحتمل قليلاً أنه كان لا يُحَدِّث في تَرْجَمتِهِ لحياته عن معرفته للغاتٍ أجنبية، لو كان يَعْلَمُها بالحقيقة، ولا تجدُ في أثره من ناحيةٍ أيَّ استشهادٍ نَصِّيٍّ أو مترجم من قِبَله، ولا أيَّ تلويحٍ يحمل على اعتقاد ذلك.

(١) ذاك ما جاء في « مفكري الإسلام» جزء١، لكاره دوفو.

وهذا يحملنا على إبداء ملاحظةٍ تساعد على إيضاح حال ابن خلدون النفسيَّة وعلى تعيين مكان أثره، وتلك هي ما يلزم من سكوتٍ مطلقٍ تقريبًا حول موضوع أوروبا والنصرانية، وذلك أنه في عبارةٍ قصيرةٍ من التاريخ العامِّ، حيث تَطَرَّق إلى الحديث عن نظام البابوية، يعتذر من فوره عن الكلام حَوْلَ " موضوعٍ في الكفر" (كذا)، فلم يَقَعْ قَطُّ، أن صَنَع من هذا مادةَ مقارنة وتأمل، ومن يقرأ المقدمةَ يذهب إلى أن المؤلِّف يَجْهَلُ كلَّ شيءٍ عن وجود ذاك الأمر مع أن هذا يستحيل لدى مؤلفٍ للتاريخ العامِّ كما هو واضح، وإلى هذا أضف عدمَ اقتصار ابن خلدون على معرفة النصرانيَّة معرفةً نظرية، فنحن نعلم أنه ثوى في مملكةٍ نصرانيةٍ، أي في بَلاط الطاغية بِطْرُه، حيث عَرَف أن يَحْمِل على تقديره ما دام المَلِكُ قد عرض عليه مَنْصِبًا مع رَدِّ أموال أجداده إليه في أَشْبِيلِيَّة، وكذلك فإنه يجب أن يُسَلَّم بأن فيلسوفنا كان يَعْرِض هذه الظاهرة التي ما انفكت تشتدُّ عند علماء المشرِق، وهي عدمُ الاكتراث الكلِّي لجميع مظاهر الفكر والعلم الغربييْن عما لديهم، أجل إن من المحتمل أن وَجَد هذا الازدراءُ ما يُسَوِّغه، في البُدَاءة في قِمَّة القرون الوسطى، ولكنه استمرَّ حتى بعد أن صار لا عُذْرَ له[1].

وأما ما يَتَعَلَّقُ بابن خلدون فإن هذا التحقيق يُعَيِّنُ موضعَه أيضًا، أي: كونَه قليلَ المعرفة بالتاريخ القديم، وما لديه من فكرٍ عنه مَشُوبٌ، في بعض الأحيان، بسذاجة الأقاصيص الشعبية (وهو يَبْلُغُ من الأمر ما يَعْزُو معه بعضَ آثار الرومان إلى العمالقة، إلخ)[2]، وهو قليلُ الاكتراث لتاريخ الأمم الأوربية والشرق الأقصى، ولذا فإن السُّنَن التي عَبَّر عنها مستنبطةٌ مبدئيًا من تاريخ إفريقيا الشمالية هذا القسم الذى بدا له وحده حيًّا في الحقيقة، وهو القسمُ الذي جاب مَسْرَحَه وعَرَف

(١) تجد للأستاذ ساطع الحصري ردًا على ذلك في كتابه» دراسات عن مقدمة ابن خلدون» (ص ٦٢٨- ٦٣٣)، و(ص ٦٢٣- ٦٢٧) (المترجم).

(٢) تجد للأستاذ ساطع الحصري ردًا على ذلك في كتابه» دراسات عن مقدمة ابن خلدون» (ص ٦٢٨- ٦٣٣)، و(ص ٦٢٣- ٦٢٧) (المترجم).

ممثليه، ثم من تاريخ بلادٍ إسلامية أخرى، منذ الإسلام فقط على العموم، ومن شأن هذا الاعتبار تضييقُ عموميَّةِ تركيبِ المشروع من قِبَل هذا الفيلسوف، ولكن مع تعيينه مداه في الوقت نفسه.

ولذا فإن نتائج المقدمة العامةَ تَكونُ استقراءاتٍ ناشئة عن تأمُّل الأحوال التاريخية الخاصة بالدول العربية التي أَسفَر عنها الفتحُ الإسلاميُّ، ولا سيما دولُ إفريقية الشمالية، وتحليل تلك الأحوال، وهذا إلى أن المقدمة كُتِبَتْ، تقريبًا في وقت كتابة تاريخ البربر الذي قال عن موضوعه:" لا ختصاص قصدي في التأليف بالمغرب وأحوال أجياله وأممه وذِكْرِ ممالكه ودوله دون ما سواه من الأقطار لعدم اطِّلاعي على أحوال المشرق وأممه، وأن الأخبار المُتَنَاقَلَةَ لا تُوفي كُنْهَ ما أريده منه". فهذه المقارنات، وجميعُ ما نستطيع افتراضه من الطَّوْر الذهنيِّ، وعَيْنُ الوقائع وما يُبَيِّن من نتائجَ، أمورٌ تدل على أن ابن خلدون وَضَع فلسفةَ تاريخه مستندًا في براهينه إلى أخبار مباشرة.

ابن خلدون.. فلسفته الاجتماعية

obeikandl.com